

مه أوب التاريخ

سفارة موسيقية

من مصر إلى مرا كس

للاستاذ محمد سيد كيلاني



كان عام ١٩٠٤ نهاية التنافس الاستعماري بين إنجلترا وفرنسا فمقد بين الدولتين اتفاق ودي بمقتضاه تسيطر إنجلترا على مصر في نظير اعترافها لفرنسا بحق السيطرة على مرا كس . وقد قلت النفوس في مصر ومرا كس من جراء هذا الاتفاق واضطربت الخواطر وسادت الكتابة رعم الحزن . وبينما كان الناس متجهين بمواظفهم نحو مرا كس ؛ يقبون في جزع شديد ما سوف يقع على هذا الشعب المسكين من بطش الاستعمار الفرنسي وجبروته إذا بصحيفة المؤيد تطلع على الجمهور بمددها الصادر في ٩ مارس سنة ١٩٠٤ تحت العنوان المتقدم بالتبأ الآتي :

« هذه السفارة ليست من حكومة مصر بل من رعايا دولة الغرب الأقصى في مصر إلى مولاي عبد العزيز سلطان تلك الدولة وهي مؤلفة من ثمانية أشخاص بين ممن ومغنية وموسيقى قد

مواظبا على ذكر الهدف ثم يواظب عليه إلى أن تمهي عن التلب سورة اللفظ وحروفه وهيئة الكلمة . ويبقى معنى الكلمة مجرداً من قلبه حاضراً فيه كأنه لازم له لا يفارقه وله اختيار إلى أن ينتهي إلى هذا الحد . وعند ذلك إذا صدقت إرادته وصفت همته وحننت مواظبته فلم تجاذبه شهواته ولم يشغله حديث النفس بملائق الدنيا تلعب لوامع الحق في نفسه .

ولا شك في أن هذه الطريقة التي ذكرها الغزالي للحصول على الإلهام هي الطريق التي تسلك أيضاً لإيجاد اليقين الذي يستولى على القلب . وعلى كل حال فهي الاستهواء الثاني بمينه ولكنته من النوع القوي الذي يؤدي إلى ذلك الشيء الذي يسميه علم النفس الحديث بانقسام الشخصية .

عمرى الحسيني

اتفق معهم حضرة الحاج محمد شقرون وكيل دولة الغرب الأقصى سابقاً في مصر على السفر بالمرتبات التي تقررت لهم وهي المذكورة بإزاء اسمائهم ولولا أن أحد محرري الجريدة شاهد بينه وأوراق السفر في الدرجة الأولى والمعقود المختصة بذلك ما صدقنا الخبر الذي يراه كل إنسان لم بأحوال دولة الغرب الأقصى، ومشاكلها المالية والسياسية الآن في غاية الغرابة .

وقد استلمت جوقة الطرب المصرية جوازات السفر وتذاكر الوابور في الدرجة الأولى لجميعهم وأجرة ثلاثة أشهر مقدما على الحساب الآتي :

المرتب الشهري بالجنهات	الاسم	الصنمة
٤٥	على الرشيدى	عواد
٦٥	مرسى بركات	قانونى ومغن
٢٥	فريد شلهوب	كمنجاني
٣٠	محمود حمدى	مغن
٢٥	محمد السيد	«
١٤٥	نظيرة سلطانة	عزادة ومغنية
٦٠	لطيفة سلطانة	مغنية

وربما كانت هذه الجوقة أكبر وقد مصرى ذهب إلى بلاد مرا كس بالطف معنى من معانى التواد والتواصل بين الأمم وبمضها ، فسمى أن تكون هذه السفارة فائمة خير بين الملكتين وعسى أن يعود مولاي عبد العزيز بمددها على رؤوية الوفود تأتيه من البلاد الشرقية فينتفع منها لكل أرب بمد هذا الطرب «

وما كاد الناس في مصر يقرأون هذا الخبر حتى وقفوا أمامه متعجبين مندهشين وتارت خواطر الثيويورين على صالح المسلمين ضد سلطان مرا كس وشرع الكتاب ينشرون المقالات ناقدين مملك السلطان نقداً عنيفاً مرا ، حاملين عايه حلة قاسية ، وقد اضطلمت صحيفتنا اللواء والمؤيد بمبه تلك الحملة التي ساهم فيها مصطفي كامل بقلمه ونفت من روحه عبارات حماسية رائثة ضد السلطان عبد العزيز وكال له التوبيخ والتفريع ووفى الكيل . وإلى جانب ما في هذه المقالات من نقد وتجريح ترى مقالات أخرى

فاحذر على التخت أن يسرى الطراب له
فتخت سلطنة أعدي من الحرب
وفي هذه الأبيات يقف الشاعر حزينا متحسرا لتلك الحال
التي ذكرتها كانت عليه الأمور في بلاد الأندلس من اختلال،
متوقفا لمرأ كش نفس المصير التي لاقته بلاد الأندلس من قبل
نتيجة لانفاس ملوكها في اللهو واللعب، وإهمالهم لشؤون الملك حتى
ضاع من أيديهم فتاحوا بمد ذلك عليه كما تنوح النساء ولم يجدم
ذلك نفعا وذهبت البلاد من أيديهم . وقد حاول حافظ أن يسوق
هذه الذكرى المؤلمة لسلطان مرأ كش لعله ينتفع بها ويقام عن
غيه ويعمل لما فيه صالح رعيته قبل أن يفرقه الطوفان .
وقال آخر :

قالوا الخليفة في قاس أحق بها
من فرع عثمان فرع الفضل والجود
قلت إن صدقت دعواكم التمسوا
خليقة الله بين الناي والسود
شر الخلافة ما قد بات صاحبه
ما بين « صرسي وشاهوب ومحمود »
وبين « سلطنة » لا بين سلطنة
تلويه عن كل تديير وتسديد
يامرخيا لهوى النفس العنان أفرق
واشفق على رمسوق باق به تودي
هلاهاك اتفاق « الدولتين » غدا

عن اتفاق مع الغينيات والفيدي
وهذه الأبيات تتنازع بأنها تتناول حال سلاطين تركيا وحال
سلاطين مرأ كش بالموازنة . والشاعر هنا يرد على من يريدون
نقل الخلافة من سلاطين تركيا إلى سلاطين مرأ كش الذين
يدعون الانتساب إلى الرسول فيصفه آراءهم ويخطئ أفكارهم
ويقول لهم انظروا إلى هذا السلطان المرأ كشي الذي يريدون
تنصيبه خليفة للمسلمين فهو عاكف على اللذات متنفس في
الشهوات منفق المال بغير حساب على الغنيات . ومثل هذا السلطان
لا يصلح بالطبع لأن يشغل منصب الخلافة . ثم ختم هذه الأبيات
بالوعظ والتذكير والتوبيخ والتفريع الذي ساقه إلى السلطان في

يقلب عليها روح التهمك والسخرية ومثال ذلك ما جاء في المؤيد
بتاريخ ٢٨ مارس من تلك السنة وهو : « يظن أن أنباء سدى
جوقة الطرب وصلت إلى عظمة وولاي عبدالعزیز سلطان مرأ كش
في الوقت الذي وصلت فيه إلى عظمته أنباء بوادر الاتفاق
الإنكليزي الفرنسي بشأن مرأ كش . وقد ذكر لنا ثقة أن
مكاتب البلاط المرأ كشي في مصر بت إليه يقول إن الاتفاق قد
تم مع أحسن جوقة طرب مصرية كل فرد من أفرادها صفوة أهل فنه .
فتى وصلت إلى الحضرة السلطانية المرأ كشي وصدع موسيقارها
وغنى مغنيها قالت الحضرة الشريفة على الدنيا كلها السلام .

أما مكاتب التيمس في طنجة فقد بعث لجريدته يقول إن
أنباء بوادر الاتفاق الإنكليزي الفرنسي بشأن مرأ كش قد
وصلت إلينا وأرسلت إلى سلطان المغرب ، وكبار الأهل ينتظرون
بقية التفاصيل انتظار الظلمآن الماء ... الخ »

صرى جوقه الطرب :

تحت هذا العنوان أفسحت المؤيد مكانا للشراء ، فأخذوا
يتبارون في نظم القطوعات وكلها تفيض بالهجاء الموجه والنقد
المؤلم والتهمك والسخرية وإظهار الأذى والحزن على ما وصلت إليه
أحوال البلاد المرأ كشي . قالت صحيفة المؤيد « رجاءنا مقطعات
كثيرة من بعض أفضل الشعراء في هذا الباب فنمنا عن نشرها
غلو أصحابها في الألفاظ الموجهة لسلطان المغرب .

فعل الذين يجودون بأدبهم على القراء من هذا المعنى الجديد
أن يراعوا مقام من يتلقى به السلام ، وكل مقام مقال . »
وهذه العبارة تكفي للدلالة على الأثر السيء الذي تركته في
النفوس تلك العبارة الموسيقية التي أقام بها سلطان مرأ كش
فرحا في وسط المآتم والمآذن التي كان يقيمها أفراد شبيهه . ومع
ذلك فإن الشعر الذي نشر في ذلك الوقت يفيض بالأذى والحزن
ويعرب عن حقد شديد على هذا السلطان المابث . ومثال ذلك
قول حافظ إبراهيم :

عبد العزيز لقد ذكرتنا أما كانت جوارك في لهو وفي طرب
ذكرتنا يوم ضاعت أرض أندلس الحرب بالباب والساطان في اللعب

غير رفق ولا لين .

وقال أحمد الكاشف :

من كعبد المزيز أقوى على الدهر ر يلاق الخطوب سمحاً لموبا
زلزلت أرضه ففتنى على زا زالمها ناعم الفؤاد طروباً
وفى هذين البيتين سخريه مرة وتهكم شديد . فاشاعر
يظهر العجب من شدة بأس السلطان وقوة احتماله . فهو لم يجزع
للخطوب ولم يتحرك للحوادث الجسام التي أحاطت به ، بل قابل
الشدائد باللهم واللهم . ولما زلزلت الأرض تحته لم يفزع ولم يخف
بل جلس على أقباض هذه الزلازل يستمتع بالقضاء والرقص والحمر .
وقال :

لاتلوموا خليفة العرب في اللهم و فاقه غيره عزاء لنفسه
نظراً للخطب وهو لا بد منه فتجاشاه في مجالس أنسه
ربما مثلت له حجب الكأ من شهاباً فظنه بعض بأسه

وفي البيتين الأولين بصور الشاعر السلطان في صورة من يهرب
من الحزن والنم إلى مجلس أنس ليهمد عن نفسه متاعب الأحزان
وآلامها ، ويجد في الحمر والنماء عزاء لنفسه وتسلية لها حتى لا تسترسل
في العموم فهلك . وفي البيت الأخير يسخر الشاعر من السلطان
سخريه مرة وتهكم منه نهكاً قاسياً مضحكاً . وقال :

عبد المزيز علام تلهو بالصبا لهو المؤمل أطول الآجال
وإلى م تسمع مطربيك وقد علا صوت الذير بأهمل الأحوال
فلقد أجرتهم ثلاثة أشهر هلا أجرتهم ثلاث ليالي
وفي هذه الأبيات لانسمع سوى التوبيخ والتعنيف والتعريج
الشديد المؤلم؛ والتحذير والترهيب من سوء الماقبة .

وقال آخر :

إيه عبد المزيز أي شهاب أنت في ظلمة القضاء الخفيف
يرسل الخطب كل يوم نذيراً فتراه بالناسظر المكفوف
كيف يصنى إلى النذير فؤاد ملأته « سلطنة » بالمزيف
أنت كالتقدر تبلغ النار منها فتفتنى كالواله المشغوف
خطر حاضر وآخر آت وحقوق نذيرة محتوف
وعود إلى افتيكالك ظام ظماً الصب للى المرشوف
هو في حومة وأنت بأخرى بين بيض كبيضه وصفوف

قالدم الراح والجنود سقاة وقرع الظبا رنين الدفوف
فانظر إلى ماقى هذه الأبيات من الصور والمعاني وعبارات
الهجاء اللاذع كما في قوله « أنت كالتقدر . . » وإلى ما فيها من التهكم
والسخريه ، والموازنة بين حالة الفرنسيين الذين كانوا يجردون
في امتلاك مرا كس وما يقابل ذلك من غفلة السلطان وقموده عن
الدود عن بلاده ، واشتغاله بتوافه الأمور ور كونه إلى اللهم ور اللهم .
وأنة لم يجد أمامه ما يفعله بإزاء تلك الخطوب التي حاقت ببلاده
سوى إنفاق الأموال الطائلة على المنقيات في الوقت الذي اضربت
فيه الأحوال المالية في بلاده اضطراراً مهد للفرنسيين السبيل لبسط
حمايتهم على البلاد وإذلالها .

وقال أحمد نسيم :

ليتنى قادر على اللهم يوماً فيه يشجى الفؤاد نقرالدفوف
غن عبد المزيز في كل خطاب هذه عيشة الفقى الفيلسوف
لم يستطع أحمد نسيم وكان أجيراً لسلطات الاحتلال . في مصر
في ذلك الوقت أن يقول أكثر من هذا . وماذا يقول وهو الذي
كان يشهد بفضل الاحتلال البريطاني ويسبح بحمده ؟ والاتفاق
الودي أثر من آثار هذا الاحتلال . وفيه اعترفت فرنسا لإنجلترا
بمركزها في مصر كما أطلقت بريطانيا يد فرنسا في مرا كس . فأحمد
نسيم اعتبر سلطان مرا كس فيلسوفاً يعيش عيشة الفلاسفة . وهو
يحض السلطان على سماع الغناء والانفاس في اللذات في أوقات
الحزن والخطوب . فإن هذا العمل في نظر أحمد نسيم شاعر الاحتلال
من الأعمال المحموده التي تليق بالفلاسفة في نظر هذا الشاعر
هم الذين يتكبرون شجوبهم يموت جوماً ، بينما هم ينتمسون في
الشهوات دون حسيب أو رقيب .

وقال إمام العبد:

لاموا الفتاة ومامرت بطبولها إلا لتوقظ أممة نسانه
لما رأت سلطانهم في نشوة . وراحت تدير شؤونهم « سلطانه »
ومن قال الإمام العبد إن الأمة المرابكية كانت نسانه ، وأنها
كانت في حاجة إلى المود والقانون لتسقيظ على أنغامها ؟ أما قوله
إن السلطان كان في نشوة فهذا صحيح . أما قوله « وراحت تدير
شؤونهم سلطانه » . فخطأ محض ، لأن الفرنسيين لم يقفوا متفرجين